مواجهة علماء الإصلاح للفكر التغريبي في الجزائر قضية السفور أنموذجا

Title Reform scholars confront Western thought in Algeria, the issue of unseen as a model

1– آمال معوشي، جامعة محمد بوضياف المسيلة (الجزائر)

amel.maouchi@univ-msila.dz

تاريخ الاستلام: 2021/05/02 تاريخ القبول: 2021/07/24 تاريخ النشر: 2021/12/31

ملخص:

اعتنى رجال الإصلاح في الجزائر بقضايا المرأة الجزائرية وانشغالاتها مؤمنين بمكانتها ودورها الفعال في المجتمع، وإلى جانب دعوتهم بإصلاح أحوالها وتعليمها وربطها بتعاليم دينها، لم يغفلوا عن التصدي لكثير من القضايا والخطابات الدخيلة عن العرف والمجتمع والدين الإسلامي التي ابتلي بها المسلمون، ولعل من أهم هذه القضايا قضية السفور والدعوة لتحرير المرأة بنزع الحجاب باعتباره رمزا للتخلف، وشكلا من أشكال العبودية والقيود المفروضة على حرية المرأة، التي انتشرت حينها داخل الجزائر وخارجها خاصة في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، فتعالت أصوات زعماء الإصلاح واستنكرت هذه الدعوة التي اعتبروها منكرا من القول، وتحدي لأحكام صريحة وقطعية وردت في القران الكريم، إن هذه المساهمة تسعى بحول الله لتوضيح رأي المصلحين الجزائريين الذين رفضوا مسألة الدعوة إلى السفور وتصدوا للتيار التغريبي، ونحاول من خلالها توضيح موقفهم وكيف تفاعلوا مع قضية السفور؟ وكيف رأوا حرية المرأة وكيف دافعوا عنها ؟

كلمات مفتاحية: الفكر التغريبي، السفور، المرأة الجزائرية، الحركة الإصلاحية ، الحجاب، حرية المرأة

*- المؤلف المرسل

Abstract:

The reformists in Algeria took care of the Algerian women's issues and concerns, believing in her status and effective role in society, and in addition to calling to reform her conditions, teach her and link her with the teachings of her religion, they did not neglect to address many issues and discourses about foreign customs, society and the Islamic religion that afflicted Muslims, and perhaps one of the most important of these The issues are the issue of unpreparedness and the call for the liberation of women by removing the hijab as a symbol of backwardness and a form of slavery and restrictions imposed on women's freedom, which then spread inside and outside Algeria, especially at the end of the nineteenth century and the beginning of the twentieth century. According to explicit and definitive rulings mentioned in the Holy Quran, this contribution seeks, with the help of Allah, to clarify the opinion of the Algerian reformers who rejected the issue of calling for opacity and confronted the Westernization trend, and through it we try to clarify their position and how they interacted with the issue of unforgiveness? How did they see women's freedom and how did they defend it?

Keywords: Western thought, unpleasantness, Algerian women, the reform movement, the veil, women's freedom.

مقدمة:

اهتم علماء الحركة الإصلاحية في الجزائر بقضايا المرأة المختلفة، وبذلوا جهدا لتحسين حياتها وتخليصها من العادات الراكدة التي عرفتها، ومن حالة الجهل والتخلف التي أحاطت بها من كل مكان، وزاد الاستعمار الفرنسي في تدعيمها بالتخطيط لنشر ثقافته على حساب الموروث الإسلامي، وفي ظل المجهودات التي كان يقوم بها رجال الإصلاح لتحسين أحوال المجتمع الجزائري والمرأة ، تعالت دعوات تغريبية لتحريرها من داخل وخارج الجزائر، وارتكزت هذه الدعوات على المساس ببعض المسائل التي كانت من باب المسلمات حينها كالخروج والاختلاط والحجاب...، فخلف هذا الموضوع جدلا مستمرا في أوساط النخبة عامة بين مناصر ومعارض له، خاصة أنه ارتبط بمسألة حساسة ودقيقة وهي الحجاب، مما حتّم على رجال الإصلاح الرد والتصدي لهذه الأفكار الغريبة، ولم تعد جهودهم حينها مقصورة على تحسين

حياة المرأة فقط، بل تعدت للوقوف في وجه هذه الأفكار والدعوات الهدامة والفكر التغريبي[1] لتحريرها، ومهاجمة الفكر الدخيل المنحرف والبعيد عن المجتمع الجزائري المسلم، فالتكوين الديني لعلماء الإصلاح وتشبعهم بالثقافة الإسلامية جعلهم يتمسكون بحجاب المرأة وعفتها، مع سعيهم الحثيث إلى تحسين أحوالها عن طريق محاربة الجهل الذي كانت تتخبط فيه، والذي أحاط بحياتها من كل جانب، فمفهومهم للحرية اعتمد على تحرير العقل وليس تحرير الجسد، فما هي أهم المواقف التي سجلوها ضد السفور؟

لسنا هنا في حاجة للتدليل على أن الإسلام اهتم بالمرأة واهتم بكل ما يتعلق بها من أجل تيسير حياتها وتنظيمها، فوضح طرق تربيتها السليمة وتعليمها وحجابها ومهامها داخل الأسرة، وعلاقتها بزوجها وأولادها وأبويها، وطريقة اختلاطها مع باقي أفراد المجتمع، ووضح كل ما يتعلق بها من مسائل حساسة كالطلاق والعمل والميراث، وجعل لها شخصيتها المستقلة في أمورها المالية، وفيما يتعلق بحياتها الخاصة كعدم إرغامها على زوج معين أو خدمة ما، والحقيقة أن الإسلام أنزل المرأة منزلة عظيمة لم تحظ بها قبله ولن تحظ بأفضل منها مع دين آخر، هذا إن تكلمنا عن وضع المرأة المسلمة كما رسمه القرآن ووضحته السنة النبوية الشريفة، وكما عاشت في عصر النبوة العصر الذي نترحم عليه، ونقتبس منه، وهو خير العصور يقينا، أما عصور الانحراف والجهالة فلا يقاس عليها ولا يتأسى بها، خاصة وأن الحضارة الحديثة قد أحدثت فسادا كبيرا وتسربت إلى المجتمعات المسلمة التي تدحرجت إلى الأسفل، وتزاحمت في ذيل القافلة، وخسرت معالم التربية الصحيحة، ولا تربية مع جهالة المرأة وعزلها عن العلم والعبادة ودعوات الخير وشؤون المسلمين[2].

1-"حجبة" وحجاب المرأة الجزائرية خلال العهد العثماني:

قبل الحديث عن رأي مصلحي الجزائر وردهم على دعاة السفور، تجدر الإشارة إلى وضعية المرأة الجزائرية من حيث المظهر ومقدار الحرية الممنوح لها خلال العهد العثماني، والثابت والأكيد كما أكدته

1- التغريب بمعناه الضيق هو نبذ الشرق والعرب والإسلام واللحاق مباشرة بالمدنية الغربية بحسناتها وسيئاتها، ويتسع المعنى للتعبير عن المخطط الذي تقوم به القوى ذات النفوذ السياسي الخارجي لحمل العالم العربي على الانصهار في مفاهيم الغرب وحضارته، والعمل على إخراج المسلمين من هويتهم الإسلامية، وبذلك يكون التغريب تيارا فكريا ونزعة ذات أبعاد سياسية واجتماعية وثقافية....لها دلالات سلبية تمس الاعتقادات الدينية والهوية الإسلامية، ويرتبط التغريب ارتباطا وثيقا بالعلمانية. للتوسع ينظر: عايدة حباطي، **التيارات الفكرية في المشرق وصداها لدى النخبة العربية في الجزائر 1900-1939**، أطروحة دكتوراه في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة (الجزائر) ، 2018-2019، ص- ص 252-253.

2- محمد الغزالي، **الحق المر**، دار الشهاب، مكتبة التراث، الجزائر، 1987، ص- ص 60-61.

مختلف المصادر المحلية والأجنبية أن المرأة الجزائرية كانت امرأة محتشمة في مظهرها، ملتزمة بآداب الإسلام في لباسها، قليلة الخروج –لطبيعة المجتمع حينها- والاختلاط بالرجال، إلا لضرورة أو حاجة تمليها الظروف، ولا نجد في هذه المسألة شهادة خيرا من شهادة القنصل الأمريكي في الجزائر الذي أكد عندما أراد الحديث عن المرأة أنه يصعب وصفها ووصف لباسها لأنه لم يكن متاحا رؤيتها، وفقط من خلال ما أمكن ملاحظته فالمرأة الجزائرية خلال العهد العثماني، كان يظهر من ملابسها وهي في الخارج الحايك الذي يغطي ما تلبسه من أثواب، والحايك الذي يلازم المرأة في سفرها وخروجها عادة يكون أبيض اللون يغطي جسمها من الرأس إلى العقب، بحيث تبدو وكأنها شبح –حسبه- مع ملاحظته أن النساء لا يخرجن إلا قليلا، أو قل أنهن لا يخرجن إطلاقا وحتى المقيمات في الريف فإن العادة تلزمهن أيضا البقاء في المنزل مثل نساء المدينة، والفرق الوحيد بينهما هو ذلك الهواء المنعش الطلق الذي تتمتع به نساء الريف وتحرم منه نساء المدينة[1]، وعليه فإن شهادة القنصل أثبتت أن المرأة كانت محجبة إذا خرجت أو أنها قليلة الخروج أصلا أي محتجبة عن الخروج، أو قل "محجوبة" الكلمة الموروثة المتداولة إلى يومنا هذا للتعبير عن الماكثات في البيت، قليلات الخروج إلا للضرورة.

وما أورده مصدر أجنبي هو أيضا ما أكده مصدر عربي محلي، فحمدان بن عثمان خوجة في وصف لباس المرأة أكد بدوره أن النساء كن عند خروجهن تتدثرن في حائك يشبك بالدبابيس ويصنع من قماش بأيديهم، وحتى الثريات من النساء تغطين رؤوسهن بقطعة من الكتان أو منديل قطني،[2] وحتى النساء اليهوديات لبسن مثل المسلمات، عدا أنهن لم تكن تغطين وجوههن،[3] وتجنبن عادة الوشم لأن التوراة تمنع هذا النوع من الزينة،[4] والأصل أن الإسلام أيضا يمنعها، ويبدو هنا أن مبدأ الستر وتغطية الجسم قد انتقل إلى المرأة اليهودية تأثرا بجارتها المسلمة، فقد عرفت هذه الأخيرة أزياء شبيهة بأزياء المرأة المسلمة، ولم تكن تتميز عنها في شيء تقريبا، وقد سترت شعرها وكامل رأسها وحتى وجهها أحيانا باستثناء العينين في بعض المناطق، لتأثرها بالعادات والأخلاق الإسلامية السائدة التي تعتبر شعر المرأة عورة، وتأمر بستره وتحبذ حتى ستر

1- وليام شالر، **مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1824**، تعريب وتعليق وتقديم اسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص 86-89 .

2- حمدان بن عثمان خوجة، **المرآة**، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 1982، ص 61- 70 .

[3] L. De Tassy, **Histoire du Royaume d'Alger**, Henri du Sauzet Amsterdam, P.77, Amsterdam, P.77.

[4]Rozet et Carette, **l'Algérie, Histoire et description de tous les peuples de leur religions, mœurs, coutumes**, ... Firmin didot Frères, Paris, 1850, P215.

الوجه، هذا رغم أن الديانة اليهودية لا ترى حرجا في كشف الوجه والشعر.[1]

لكن إذا تكلمنا عن قلة الخروج والستر والالتزام بالحجاب، فهذا لا يعني أبدا أن المرأة الجزائرية خلال العهد العثماني وحتى بعده كانت سلبية ومعدومة الفائدة، فالمرأة الريفية على وجه الخصوص كانت أهم عنصر في الحياة هناك فالنساء هن اللواتي كن تحلبن وتذهبن لجلب الماء وقطع الحطب لإشعال النار، والنساء هن اللواتي تنسجن الخيام والحياك والبرانيس وتمخضن، وتتبعن طريق الحصادين لجمع السنابل، كما أنهن تولين طحن الحب، وعجن الدقيق والقيام بكل ما هو منزلي على العموم، فهن لم تكن تتوقفن عن العمل حتى انعكس ذلك على مظهرهن، وحتى صحتهن من كثرة ما تلاقين من متاعب وتقمن بأعمال[2].

ولم يقتصر نشاط المرأة الريفية على العمل داخل المنزل وخارجه فقط، بل كان لها مساهمة في التنمية الاقتصادية ومشاركة الرجل أعباء الحياة، إذ كانت معظم الموارد التي تدخل ضمن الضريبة العينية التي تجمعها السلطة العثمانية في الجزائر من الأرياف تصنع بيد المرأة، كالمنسوجات وخاصة الزرابي والمصنوعات الجلدية والمواد الغذائية كالسمن والكسكس الذي يحمل من الأرياف حتى الجزائر العاصمة[3].

وكما كان للمرأة الريفية دورها، كان للمرأة في المدينة أيضا دورها وأعمالها الخاصة في خدمة بيتها وأسرتها ودعم الحياة الاقتصادية، لكن بالنسبة للحياة الثقافية فإسهامات المرأة فيها عموما كانت قليلة واستفادتها هي أيضا من التعليم كانت قليلة جدا، بل كاد الأمر أن يكون نادرا فالإناث لا يذهبن إلى المدارس إلا نادرا عدا أصحاب البيوتات الكبيرة، الذين كانوا يجلبون أستاذا معروفا بصلاحه وعلمه لتعليم البنات[4]، واللواتي حصلن على التعليم من باقي الأسر كن قليلات وتعلمن في مدارس أشرفت على إدارتها النساء وهي مدارس بسيطة، بل مجرد حجرات صغيرة وطريقة التعليم تقليدية اعتمدت على الألواح والحفظ[5].

ولم يمنع التعليم القليل، وقلة خروج المرأة من بروز نساء مميزات تحدين الظروف والصعاب وتزعمن

1- فوزي سعد الله، **يهود الجزائر هؤلاء المجهولون**، ج.1، دار قرطبة، ط.2، الجزائر، 2005، ص- ص 184- 185.

2- حمدان بن عثمان خوجة، المصدر السابق، ص 74 .

3- جميلة معاشي، "نماذج عن مكانة المرأة في الجزائر خلال العهد العثماني"، **التراث**، مجلة تاريخية أثرية تصدرها دوريا جمعية التاريخ والتراث الأثري لمنطقة الأوراس، باتنة (الجزائر)، العدد 8، نوفمبر 1995، ص 21 .

4- أبو القاسم سعد الله، **محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث بداية الاحتلال**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط.3، الجزائر، 1976، ص 161.

5- وليام شالر، المصدر السابق، ص 82.

بعض المؤسسات الدينية التعليمية، وخير مثال "لالا زينب" التي خلفت والدها محمد بن بلقاسم[1] شيخ زاوية الهامل الرحمانية الواقعة ببوسعادة، وذلك نهاية القرن 19 ميلادي، وقد زارتها إحدى الباحثات الفرنسيات، ووصفتها في كتابها بأنها امرأة تقترب من الخمسينيات من عمرها، لباسها مستوحى من الزي البوسعادي البسيط، أثرت الشمس على وجهها لكثرة أسفارها،متقدة الذكاء، جعلت من زاويتها ملجأ للعجزة والأرامل الذين يجدون عندها ما لا يجدونه في زاوية أخرى، كما عملت "لالا زينب" على نشر الإسلام في المناطق البعيدة، وعلمت القرآن للرجال والنساء، وفتحت المدارس للطلاب وحفظة القرآن الكريم، وبذلك لعبت دورا فريدا من نوعه في خدمة الدين والثقافة[2].

وبالإضافة إلى قلة التعليم التي كانت منتشرة بين النساء، تأثرت المرأة بظاهرة التصوف[3] في سلوكها وتفكيرها،حتى أفسد بعض عاداتها وتقاليدها، وأصبحت بذلك مؤمنة بالكثير من الخرافات والأباطيل التي تمكنت من عقيدتها، كتلك الزيارات التي تؤديها نحو الأضرحة والقبور والطواف حولها والعكوف عند القبب، والاستنجاد بالأولياء والتضرع إليهم وبث الشكوى لهم وحتى الاستغاثة بهم وطلب الشفاء منهم، وفي مثل هذه

1- شيخ زاوية فقيه وهو محمد بن أبي القاسم بن رجيح بن محمد بن محمد بن عبد الرحيم يكنى بأبي عبد الله ويعرف بالهاملي نسبة إلى قرية الهامل، ولد بالحامدية قرب حاسي بحبح في شمال صحراء الجزائر أتقن علوم الحديث والتفسير وعلم الكلام والتاريخ والأخلاق. للمزيد ينظر: أبو عمران الشيخ وآخرون، **معجم مشاهير المغاربة**، جامعة الجزائر، 1995، ص- ص 545- 546.

2- جميلة معاشي، المقال السابق، ص 25.

3- ظهرت الطرق الصوفية في المشرق ثم المغرب العربي وعملت على تأسيس الزوايا والحانقات، وانتشرت وتشعبت بطريقة كبيرة منذ القرن الرابع عشر ميلادي في جميع أنحاء العالم الإسلامي، واحتلت في المجتمع الجزائري مكانة هامة، وكان لها دور فعال في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وحتى السياسية، وبلغ عددها حوال ثلاثين طريقة منها الطريقة الرحمانية، التيجانية، السنوسية، القادرية ... وكل طريقة تفرعت منها زوايا كثيرة وقد وصل عددها حوالي 349 زاوية في القرن 19م، وعرفت الزوايا بأنها مؤسسات لرؤساء الطرق اجتمعوا فيها مع مريديهم، وقدمت الكثير من الخدمات الاجتماعية والثقافية، لكن هناك بعض الزوايا انحرفت وأدخلت الكثير من البدع والخرافات إلى المجتمع الجزائري ولم تعد حامية الدين وناشرة المعرفة. للمزيد ينظر: طيب جاب الله، "دور الطرق الصوفية والزوايا في المجتمع الجزائري"، **معارف**، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، بويرة (الجزائر)، العدد 14، أكتوبر 2013، ص- ص 134- 149، وأيضا: ياسين بودريعة، **أوقاف الأضرحة والزوايا بمدينة الجزائر وضواحيها خلال العهد العثماني من خلال المحاكم الشرعية وسجلات بيت المال والبايلك**، ماجستير في التاريخ الحديث، قسم التاريخ، جامعة بن يوسف بن خدة، الجزائر، 2006-2007.

الزيارات الكثيرة قد تحدث خلوة بالشيوخ والأولياء والاختلاط بالرجال الأجانب في الساحات وأمام الأضرحة، وكانت قوة الطرقيين مسيطرة على المجتمع الجزائري رجالا ونساء حتى الحرب العالمية الأولى، وقد أكد سيطرتها لاحقا الإمام عبد الحميد بن باديس، رئيس جمعية العلماء المسلمين الذي بذل جهدا كبيرا في محاربتها أن: "قبل ظهور الإصلاح لا أحد كان يعتقد أن الإسلام هو شيء آخر غير الطرقية"، وتسربت الضلالة والانحراف إلى الكثير من الطرق الصوفية وانحرفت عن مبادئ الدين الاسلامي،[1] حتى أصبح من الصعب الإصلاح في وجودها، وهذا ما أكده الشيخ البشير الإبراهيمي "أنه لا يتم في الأمة إصلاح في أي فرع من فروع الحياة مع وجود هذه الطرقية المشؤومة وما لها من سلطان على الأرواح والأبدان، ومع ما فيها من إفساد للعقول وقتل للمواهب."[2]

وشكل الاحتلال الفرنسي مرحلة معاناة جديدة للمرأة الجزائرية لسياسته السلبية تجاهها، فقد حاول جعلها وسيلة لمحاولة ضرب الهوية الإسلامية، فركزت الكثير من الكتابات الفرنسية على المرأة الجزائرية المسلمة، وعلى حالتها وربطت كل ذلك بالإسلام للطعن فيه، واجتمعت هذه الكتابات عموما على أن المرأة الجزائرية واقعة فريسة للرجل وغارقة في الخرافات والجهل، وهي ضحية التخلف والأمية والدين الذي جعل القوامة للرجل عليها، وأباح تعدد الزوجات وجعل الطلاق بيد الرجل وحده وفرض عليها الحجاب، والمرأة عند الفرنسيين وفي كتاباتهم نمط واحد في المدينة والريف، فهي آلة للعمل والإنجاب ولا أفراح ولا مراقص ولا ملتقيات اجتماعية في حياتها، فالمجتمع الجزائري مجتمع رجولي وليس فيه دور للنساء، ومن هذا المنطلق جاءت محاولات الأوروبيين لإنقاذها فأرسلت النساء الأوروبيات لتحريرها واقتحام عالمها، من خلال القلم والمصنع والتنصير وفتح الورشات ومحاولة الاغراء ... وغيرها من الطرق[3].

2 -أشهر الدعوات لتحرير المرأة وسفورها:

ركزت الدعوات المتأثرة بالفكر والحضارة الغربية على تحرير المرأة ومنحها مزيدا من الحقوق والواجبات، الذي يصاحبه التحرر من مظهرها التقليدي بخلع الحجاب أو التخلص من بعضه خاصة غطاء الرأس والوجه، ومساواتها بالرجل في ظل ما كانت تراه وضعية مزرية ومتخلفة للمرأة الشرقية على وجه العموم، ومن بين هذه الدعوات ما انطلق من خارج الجزائر مشرقا ومغربا، دون أن ننسى الدعوات التحررية التي قادتها تركيا بقيادة الزعيم العلماني كمال أتاتورك، وما كان يدعو له من تحرر النساء والمساواة بين

1- دخلت الكثير من مظاهر الشرك والانحراف على بعض الزوايا والطرق الصوفية حتى أصبحت تمثل خطرا على المجتمع الجزائري يراجع ما كتبه ياسين بودريعة، المرجع السابق.

2- عجناك يمينة، "المرأة والإصلاح الديني في كتابات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين"، **حوليات جامعة الجزائر**، جامعة الجزائر 1(الجزائر)، الجزء الأول، العدد20، ديسمبر 2001، ص- ص 41-42.

3- أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج.6، عالم المعرفة، الجزائر، 2011، ص- ص 337-338 .

الجنسيين في تحد سافر للشريعة الإسلامية، ووصلت مختلف هذه الأفكار إلي الجزائر بعدة طرق خاصة الصحافة، ومن الأمثلة الشهيرة التي تذكر هنا ما ذهب إليه و نادى به قاسم أمين(1863-1908) الذي منح لقبا يعكس توجهه في هذا السياق فلقب بمحرر المرأة، حيث ألف كتابين عن تحريرها الأول "تحرير المرأة" عام 1899 والثاني "المرأة الجديدة" عام 1900 وطرح أفكارا كثيرة وضح فيها تصوره لمسالة تحرير المرأة، بالدعوة إلى تخليصها من الجهل عن طريق تعليمها ومساواتها بالرجل خاصة التعليم الابتدائي، وتحريرها اقتصاديا بتشجيعها وتمكينها من الخروج وكسب ضروريات الحياة بنفسها، كما تناول مسالة الاختلاط الذي تقتضيه ظروف الحياة والعمل، وتعدد الزوجات، وأشار إلى ما يهمنا هنا حول مسالة الحجاب ووضع البرقع أو النقاب وكانت وجهة نظره تقضي أنه من الضروري أن تكشف المرأة عن وجهها خلال ممارسة حياتها اليومية، ولم يكتف بالحديث عن حجاب الجسد فقط، بل أشار إلى حجاب المرأة عن الخروج من البيت، وسلب حريتها بسجنها بين جدران المنزل، وهو حسبه شكل من أشكال الاستبداد،[1] وانتشرت أفكاره التي كان من الواضح تأثره فيها بالمجتمع الغربي، انتشارا كبيرا وكان هناك من دعمه، ومنهم من تصدى لدعوته معتبرا إياها خروجا عن النصوص الشرعية وضربا في مقتل للعرف والعادات والتقاليد والدين الإسلامي.

وحاول قاسم أمين في كتابه "تحرير المرأة" عرض رأي الشريعة الإسلامية في الحجاب[2]، كما تعرض إلى ميل الناس إلى المغالاة في الستر ظنا منهم أنه من الدين وعملا بأحكام الشريعة، وذهب إلى جعل النقاب والبرقع من العادات القديمة السابقة للإسلام والباقية بعده، وليس من المشروعات الإسلامية لا للتعبد ولا للأدب، ومن بين أدلته أن هذه العادة ليست معروفة في كثير من بلاد المسلمين، وأنها لم تزل معروفة عند أغلب الأمم الشرقية التي لا تدين بالإسلام،[3] واستعرض أفكارا أخرى كثيرة حول حجاب النساء خاصة البرقع، وتربية المرأة، والمرأة والأمة والعائلة، والحقيقة أنه زعزع الكثير من القيم الاجتماعية التي تعارف عليها الناس وألفوها منذ مدة، ورغم أن بعض أفكاره قد تبدو مألوفة وفق منظورنا الحالي، إلا أنها في زمانها ومكانها شكلت انقلابا فكريا كبيرا، وثورة على العادات والتقاليد، وخطوة غير مسبوقة نحو تغريب المرأة المسلمة.

ولم تقتصر دعاوى السفور الخارجية عن المشرق فقط بل انطلقت أصوات مغاربية غير بعيدة عن الجزائر خاضت غمار الموضوع وأدلت بدلوها فيه، وكانت وجها من أوجه الفكر التغريبي الذي أراد المساس بأحد رموز الهوية للمرأة المسلمة، ومن أشهر الأصوات التي نضربها مثلا هنا الكاتب التونسي الطاهر الحداد

1- للاطلاع على أفكار قاسم أمين يراجع: قاسم أمين، **تحرير المرأة** (ويليه تربية المرأة والحجاب لطلعت حرب)، دار الكتاب المصري-دار الكتاب اللبناني، القاهرة-بيروت، (د.ت.) وأيضا قاسم أمين، **المرأة الجديدة**، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، 2012

2- قاسم أمين، **تحرير المرأة**، المصدر السابق، ص 62- 73.

3- المصدر نفسه، ص70.

(1899-1935) في كتابه عن المرأة التونسية تحت عنوان "امرأتنا في الشريعة والمجتمع" الذي أصدره عام 1930 و تجاوزت أفكاره حدود تونس ووصلت الجزائر، ووصف عند بعضهم بالكتاب الثوري بأتم الكلمة، ودعا صاحبه إلى ضرورة مراجعة أحكام الشريعة الإسلامية وجعلها مواكبة لتطور الزمان، والتوفيق بينها وبين تطور المجتمع، كما انتقد نظام تعدد الزوجات، وقانون الميراث الشرعي الذي يمنح للذكر حظ الأنثيين، فانتقد عدم تساوي الميراث بين الرجل والمرأة، واقترح في هذا المجال وضع إصلاحات تراعي التطور الحاصل في العقليات بالنسبة للمجتمع المتحضر، وطالب بتغيير وضعية المرأة التقليدية بمنحها مزيدا من الحرية والارتقاء بمنزلتها، ووصف الوضع "الشاذ" الذي أصبحت عليه البنت المسلمة في وسطها الاجتماعي من تاريخ ولادتها إلي تاريخ زواجها، موضحا ما يكتسيه ذلك الوضع من فراغ وعدم جدوى، وقد أثار كتابه سخط المحافظين المتدينين في تونس الذين طالبوا بالحجر عليه، وأدانته لجنة المشايخ المحافظة هو وكتابه، ونزعت منه الشهادات الممنوحة من جامع الزيتونة، وكان هذا الأمر محل تعليق الصحف على مختلف توجهاتها بين مؤيد ومعارض، فنال مساندة "مجلة العالم الأدبي" وجريدة "الزمان"، وتهجمت عليه وبشدة "الزهرة" و"النهضة" و"مرشد الأمة" موجهة له مختلف الاتهامات، ورد عليه أحد شيوخ الحنفية المدعو محمد الصالح ابن مراد بكتاب عنونه "الحداد على امرأة الحداد".[1]

ورغم أننا لسنا بصدد التعمق والتحليل لكل ما ورد في كتاب الحداد إلا أننا نكتفي بإشارات حول موقفه من الحجاب والسفور، والجدل الذي كان قائما حينها في تونس بين المحافظين والمتأثرين بالتيار الغربي حول مسألة حجاب المرأة المسلمة، فقد انتقد الحداد الحجاب وشبّه النقاب بكمامة الكلب قائلا: "ما أشبه ما تضع المرأة من النقاب على وجهها منعا للفجور بما يوضع من الكمامة على فم الكلاب كي لا تعض المارين، وما أقبح ما نوحي به إلى قلب الفتاة وضميرها إذ نعلن اتهامها وعدم الثقة إلا في الحواجز المادية التي نقيمها عليها، ونلزمها هي الأخرى أن تقتنع بما قررنا راضية بضعفها إلى هذا الحد موقنة بخلوده الأتي في أصل تكوينها، وليس عند هذا الحد وقفنا بل قد كان هذا النوع من الحجاب رخصة لخروجها من منزلها تقدر بقدر الضرورة الموجبة للخروج .....ولو أننا كنا نتأمل مليا نتائج هذا الضعف الذي نغذيها به في حياتها وحياة المنزل وأبنائها والعائلة والشعب جميعا، لأدركنا جليا أننا نهيئ شقاءنا وشقاء بيوتنا بأنفسنا."[2]

وأقر أن فكرة الحجاب أنانية من الرجل فقال: "على أنني كلما فكرت في الحجاب لا أرى فيه إلا انه

1- أحمد القصاب، **تاريخ تونس المعاصرة (1881-1956)**، ترجمة حمادي الساحلي، الشركة التونسية للتوزيع، ط.1، تونس، 1986، ص- ص 343-347

2 الطاهر الحداد، **امرأتنا في الشريعة والمجتمع**، تقديم محمد الحداد، دار الكتاب المصري- دار الكتاب اللبناني، القاهرة – بيروت، 2011، ص 209.

أنانيتنا المحجبة بالشعور الديني كحصن نعتز به على المخالفين."[1] وجعل سفور المرأة ظاهرة جديدة في حياة المجتمع نشأت بفعل الحضارة الغربية، لكن أيضا تحت تأثير العوامل الملتهبة في نفسها منذ فجر التاريخ، [2] ورجح عدم ميله للتمسك بحجاب المرأة بقوله: "لا فائدة أن نعلن عن حبنا للطهارة في تمسكنا برأي الحجاب ....وإنني شخصيا غير آمل في حل مشكلتنا هذه بالانتصار لرأي الحجاب الذي تتغلب اليوم عليه عوامل أقوى من الانتصار له مهما كان مبلغ هذا الانتصار والطرائق التي تستعمل لنجاحه، وما كان أحوجنا إلى الاتحاد في تعليم وتربية المرأة للنهوض بها بدلا من هذا الجدال العقيم الذي نملأ به أيامنا العاطلة."[3]

وعموما انتقد الحداد في كتابه "امرأتنا في الشريعة والمجتمع" شكل الحجاب المنتشر حينها في تونس وجعله عبارة عن عادة موروثة في المجتمع، ودعا إلى التركيز على تعليم المرأة وتحسين ظروف معيشتها فهي القضايا الأساسية حسبه وليست قضية الحجاب والسفور، كما انتقد حجب النساء في البيوت ومنعهن من الخروج شأنه في هذا شأن قاسم أمين، ودعا للسماح للمرأة بالخروج والتعلم وعلى الأقل التمتع بضوء الشمس والعمل معتبرا "...أن الحجاب الذي نقره على المرأة كركن من أركان الإسلام سواء في مكثها بالمنزل أو وضع النقاب على وجهها ليس من المسائل التي يسهل إثباتها في الإسلام..."[4]

وبالنسبة للجزائر فرغم أنها لم تعرف شخصية ماثلت شهرة قاسم أمين أو الحداد في الدعوة إلى تحرير المرأة والسفور، إلا أن أقلاما كثيرة قادت حملة لتحرير المرأة وأبدت إعجابها بتحرر النساء التركيات ومثيلاتهن من نساء الشرق، وكانت هذه الأقلام عموما أقلام الجماعة المتجنسة بالجنسية الفرنسية المتأثرة بالثقافة الغربية، ومن أشهر الأسماء نذكر: إسماعيل حامد، محمد صوالح، حاج الشريف قاضي، الشريف بن حبيلس، رابح زناتي... وكانت صحيفتي "صوت المستضعفين" (la voix des humbles وصوت الأهلي la voix indigène منبرا لخطاباتهم ودعوتهم التي ربطت بين حرية المرأة والسفور والاختلاط، وأشادوا بالتجربة التركية التي حررت المرأة، بينما اعتبروا المرأة الجزائرية الأهلية ضحية العادات المحلية ومستعبدة من الزوج، وقد شمل خطاب المتفرنسين المرأة العربية والقبائلية، وطالبوا لتحسين حالتها بتحررها على الطريقة الغربية.[5]

---

1 المصدر نفسه، ص 210.

2 المصدر نفسه، ص217.

3 المصدر نفسه، ص 222.

4 المصدر نفسه، ص 26.

5 زهير بن علي، **قضايا المرأة ضمن اهتمامات الحركة الإصلاحية الجزائرية 1925-1954**، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة الحاج لخضر باتنة (الجزائر)، 2014-2015، ص، ص 129- 136.

3- مواجهة علماء الإصلاح في الجزائر لقضية السفور ومفهومهم لحرية المرأة.

نتيجة عدة عوامل أصبحت المرأة الجزائرية مطلع القرن العشرين تخرج أكثر من سابق عهدها، وأقبلت على الحياة العملية من عدة جوانب، لكنها عمليا لم تعرف ظاهرة السفور إلا في ثلاثينيات القرن العشرين (1930) بعد الاحتفالات المئوية، وارتفاع أصوات النخبة المفرنسة عبر صفحات "صوت الأهلي" و"صوت المستضعفين" بدعوتهم إلى تحرير المرأة والانفتاح على الحضارة الغربية،[1] وأمام دعاوى الانفتاح وخلع الحجاب التي كانت تفد من خارج القطر أو من داخله، قام المصلحون الجزائريون بمقاومة الأفكار التحررية الداعية لسفور المرأة وتحررها، وتفاعلوا مع الأمر بعدة مواقف قولا وعملا، ورغم أنهم في البداية وبعد نشر قاسم أمين كتابيه "تحرير المرأة" و"المرأة الجديدة"، كانوا بعيدين عن المعركة الفكرية التي عرفها المشرق، واكتفوا بنقل مقالات رشيد رضا عن الموضوع ونظرته الفقهية لمسألة السفور والحجاب، وزواج المرأة وحقوقها المالية ومسألة الميراث،[2] وأيضا موقف شكيب أرسلان عبر صفحات الشهاب،[3] وهي من أشهر الصحف الإصلاحية حينها، إلا أنهم مع الوقت أبدوا رأيهم الشخصي في المسألة الذي لم يخرج عموما عن ما أقرته الشريعة الإسلامية، و تصدوا للفكر التغريبي قولا وعملا من خلال ما كانت تبذله جمعية العلماء من إرساء خطوات عملية في تعاملها مع تعليم المرأة وتهذيبها والاهتمام بشؤونها، مع نبذ سفورها أو اختلاطها بالرجال، وعلى رأس العلماء قطبي الإصلاح في الجزائر الشيخ عبد الحميد بن باديس و الشيخ البشير الإبراهيمي.

لقد رأى الشيخ عبد الحميد بن باديس أن الإصلاح الحقيقي للمرأة ليس في نزع حجابها وخروجها سافرة، إنما في تحرير عقلها وتنويرها بالعلم والمعرفة، ومفهوم التحرر بعيد كل البعد عن السفور فأكد: "إذا أردتم إصلاحها الحقيقي فارفعوا حجاب الجهل عن عقلها قبل أن ترفعوا حجاب الستر عن وجهها، فإن حجاب الجهل هو الذي أخرها، وأما حجاب الستر ما ضرها في زمان تقدمها، فقد بلغت بنات بغداد وبنات قرطبة وبنات بجاية مكانا عليا في العلم وهن متحجبات، فليت شعري ما الذي يدعوكم اليوم إلى الكلام في كشف الوجوه قبل كل شيء."[4] هذا هو الفكر والكلام الذي واجه به دعاة السفور ونزع الحجاب عن المرأة،

---

1 عايدة حباطي، المرجع السابق، ص 292.

2 ينظر **مجلة الشهاب**، مج.6، جويلية 1930، ص.361-368 وأيضا مج.6، أوت 1930، ص.426-330 وأيضا مج.6، سبتمبر 1930، ص.485-495 نقلا عن عايدة حباطي، المرجع السابق، ص 292.

3 الشهاب، مج.6، جوان 1930، ص 277 نقلا عن المرجع نفسه، ص 293.

4- **الشهاب** مج.5، ج.10، نوفمبر 1929، ص 9.

وانتقد ما كتبه الطاهر الحداد وموقفه من تحرير المرأة في كتابه "امرأتنا في الشريعة والمجتمع"، واعتبره أهلك نفسه بموقفه الذي عارض به الشريعة الإسلامية، ويبدو أن الشيخ قد التقى الطاهر الحداد في تونس بالصيف أثناء تحضير الأخير لكتابه، ففهم منه أثناء الحديث أن الحداد يتكلم في كتابه عن النهوض بالمرأة نهوضا صحيحا ويريد لها تعليما مفيدا في حدود الإسلام، ولم يتوقع منه أن يكون من أنصار التيار التغريبي الذي يخرج المرأة المسلمة عن دينها ووظيفتها وأنوثتها، وكم كانت دهشته كبيرة من محتوي الكتاب الصادم بعد أن أهديت له نسخة منه واطلع عليه، لما يحتويه من إبطال لأحكام عديدة من الشريعة الإسلامية، وتعطيل لنصوص شرعية وأحكام من القرآن الصريحة القطعية، بدعوى أنها غير لائقة بالنساء في هذا العصر[1]، هذا ما دفع بالشيخ عبد الحميد أن يعتبر هذه الآراء باطلة بل ومهلكة لصاحبها وأكد: "نحن لا نخشى على المسلمين من دعوته شيئا لأنه من المعلوم الضروري عندهم أن جحود شيء من القرآن كفر به، وإنما نخشى عليه هو أن يستمر على عقيدته فيكون من الهالكين."[2]

وكانت مجلة الشهاب قد نشرت مقالا لمحمد الصالح بن مراد تحت عنوان " الحداد على امرأة الحداد" وهذا للتنوير وتوضيح خطر الأفكار التغريبية التي جاء بها الحداد ومما ورد فيه: "التعجب من كتاب الحداد الذي كله ضلالات وجهالات وافتراءات وتهجمات على الإسلام، فتعجب الناس أن يصدر هذا من متخرج من جامع الزيتونة، فكنا نقول لهم أن هذا ليس من أثار الجامع وإنما من آثار ما وراء جدران الجامع.....وأخبرني الأخ الأستاذ مبارك الميلي المدرس ببلدة الأغواط بأن النسخة الوحيدة من كتاب امرأة الحداد التي جاءت إلى الأغواط جاءت إلى الآباء البيض هناك فحصل اليقين." [3]

ولم يغب عن الشيخ التمييز بين نوعين من السفور، السفور الإسلامي كما سماه، وسفور دعت إليه بعض التيارات التغريبية المعاصرة لتخلص المرأة من حجابها، فكتب "تفرقة وتحذير" وأشار إلى أن السفور الإسلامي وهو كشف المرأة وجهها دون الشعر والعنق عند أمن الفتنة، مع عدم إظهار الزينة وإثارة الفتنة، وهناك سفور إفرنجي فيه كشف للشعر والعنق والأطراف مع التبرج، هذا السفور الأخير حذر منه المسلمين وطالب بتوحيد الجهود للقضاء عليه، خاصة وأنه انتشر وطغى حتى على نساء أمراء الشرق المسلمين ووزرائه.[4]

أما وجهة نظر الشيخ البشير الإبراهيمي في حرية المرأة فهو يراها جزءا من الحرية التي منحها الإسلام

---

1 **الشهاب**، مج.6،ج.11، ديسمبر 1930، ص 714.

2 نفسه.

3 الشهاب، مج.8، ج.8، أوت 1932 نقلا عن عفاف زقور، "صورة المرأة المسلمة الجزائرية في خطاب الشيخ عبد الحميد بن باديس بين التجديد والتقليد"، **عصور**، جامعة وهران 1 (الجزائر)، المجلد9، العدد2، 30 ديسمبر 2010 ص 107.

4 عفاف زقور، المقال السابق، ص 108.

للبشر عامة، فالإسلام دين الحرية والتحرر وفي معرض كلامه عن "الرق في الإسلام"[1] أكد أن هذا الدين السماوي الحنيف قد حرر الإنسان بكل الأشكال، وحرر حتى الحيوان مما قد يلحقه من ظلم الإنسان، ودون شك حرر المرأة كما لم يحررها أي دين آخر، ولا عبرة لما يدّعيه الغرب ضد حرية المرأة المسلمة ومكانتها في المجتمع، بالاعتماد على بعض الحجج كعدم تساوي الميراث بينها وبين الرجل، فحريتها في تلك الشخصية الأدبية والمعنوية التي منحها لها الإسلام واستقلاليتها المادية، فالإسلام أرسى حرية المرأة والمرأة المسلمة لا تحتاج فكرا ودينا جديدا لتتحرر، لقد رأى الشيخ الإبراهيمي أن الإسلام حرر المرأة وكرمها بأن منحها كل حقوقها واستقلاليتها، في حين كانت قبله واقعة تحت ظلم الرجال وسيطرتهم وتحكمهم، ففي العالم كله كانت المرأة في منزلة بين الإنسانية والحيوانية بل هي إلى الحيوانية أقرب، تتحكم فيها أهواء الرجال، وتتصرف فيها الاعتبارات المادية المجردة من العقل، وجاء الإسلام فنبه على منزلتها وشرفها وكرم جنسها، وأعطاها كل ما يناسب قوتها العقلية وتركيبها الجسمي، وسوى بينها وبين الرجل في التكاليف الدينية، وخاطبها بذلك استقلالا وتشريفا بها، وإبرازا لشخصيتها، ولم يجعل للرجل عليها سبيلا في كل ما يرجع إلى دينها وفضائلها وراعى ضعفها البدني بالنسبة للرجل فأراحها من التكاليف المادية، ... فالإسلام أعطى المرأة من الاعتزاز والتكريم ما لم يعطها إياه دين آخر ولا قانون وضعي.[2]

ولم يمانع البشير الإبراهيمي خروج المرأة للعلم خاصة، بل منهج جمعية العلماء قائم على تعليم البنات مثل الذكور، وقد خطت الجمعية في هذا المسار خطوات محمودة فمدارسها ضمت بين صفوفها عددا معتبرا من البنات، شاركن الأولاد في السنوات الثلاث الأولى من المرحلة الابتدائية، ثم بعد هذا فضلت الجمعية عزلهن عن الذكور وخصتهن ببرنامج محكم في صفوف خاصة، مع التركيز على تربيتهن تربية إسلامية ومراقبتهن، فسياسة الجمعية قامت على الوقوف في وجه الجمود الذي كان عائقا على تعليم المرأة، فأخرجتها من سجن الجهل إلى فضاء العلم لكن بضوابط شرعية وفي دائرة التربية الإسلامية، فبنت بذلك أمرها -كما أشار الإبراهيمي- على حقيقة وهي أن الأمة كالطائرة لا تطير إلا بجناحين، وجناحاها هما المرأة والرجل، والأمة التي تعتني بتعليم الرجل دون الأنثى تريد أن تطير بجناح واحد، ومحال أن يحدث ذلك فهي واقفة لا محالة.[3]

أكد الشيخ الإبراهيمي أن حياة المرأة المسلمة على قدر كبير من الأهمية، فكل ما يتعلق بها من تربيتها، تعليمها، حجابها، وظيفتها في البيت، جهلها، هو من بين انشغالات الجمعية وعلمائها، خاصة وأن المرأة الجزائرية حالها حال نساء المسلمين حينها عانت ولعقود طويلة من الجهل والحرمان نتيجة مفاهيم خاطئة

---

1 يراجع ما كتبه في: محمد البشير الإبراهيمي، **آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي**، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، ج.4، ، دار الغرب الإسلامي، ط.1، بيروت، 1997، ص - ص 354- 371.

2- المصدر نفسه، ص- ص 360- 361.

3 المصدر نفسه، ص 170.

نسبت للدين عن جهل، لكن منهج الجمعية لا يخرج أبدا عن الشريعة الإسلامية فلا ينساق وراء التقاليد الموروثة الراكدة في رؤيتها لتعليم المرأة وحياتها، كما لا يرضى لها المنهج التعليمي الفرنسي الذي لا يناسب هويتها وانتماءها، لذا أوجدت الجمعية التعليم العربي الإسلامي ودعت إليه،[1] في مواجهة التعليم الفرنسي والفكر التغريبي وأخطاره.

وأنشد الشاعر الكبير محمد العيد آل خليفة منفرا ومحذرا المرأة من السفور داعيا لتحصينها بالعلم قائلا:[2]

كيف تنجو من الشرور نساء ... لا يوارى وجوههن لثام؟
صار خلق العفاف أندر خلق ... وتفشى الفسوق والإجرام
عصمة المرأة احتجاب وصون ... وآباء وعفة واحتشام
علموا أمة الجزائر فالعلم ... دليل لخيرها وزمام
علموها دينا من الله سمحا ... ليس فيه إصر ولا إرغام

واهتم المصلحون الإباضيون أيضا بالمرأة وقضية الحجاب وعلى رأسهم المصلح الشيخ أبو اليقظان، وقد انطلق أساسا في دفاعه عن الحجاب والستر من رؤيته الدينية حول المرأة، فهو جزء من المجتمع الإباضي الجزائري الذي تقوم فلسفته حول المرأة بالاعتماد على الدين، فهو يحفها من كل جوانبها بسياج متين شديد، هو مزيج من الأحكام الشرعية والأخلاق الإسلامية والأعراف المكتسبة والعادات الموروثة، مما يحفظ لهذه المرأة كرامتها وطهرها وشرفها دون أي خدش[3]، وكتب أبو اليقظان العديد من المقالات التي اهتم فيها بإصلاح المرأة دون نزع الحجاب عنها، ومن بين مقالاته في هذا الجانب "المرأة العربية في التاريخ"[4]، "المرأة الجزائرية والحجاب"[5]، وحاول من خلالهما الوصول بالمرأة إلى منزلتها الحقيقية في بناء المجتمع والأسرة، ووقف موقفا صارما وحاسما أمام الحملات والأقلام التي أرادت تمزيق الحجاب ونزعه من على رأس المرأة وجسمها، سواء كانت أقلام غربية أو ممن سار في فلكهم من الأقلام العربية المشبعة بالثقافة الأوروبية، التي اقتنعت بالسفور ودعت إليه، كما فعل "الطاهر الحداد" في كتابه "المرأة في الشريعة والمجتمع" فهذا الكتاب أحدث رد فعل كبير

---

1 المصدر نفسه، ص 263 وما بعدها.

2- محمد العيد آل خليفة، **ديوان محمد العيد أل خليفة**، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2010، ص 167.

3- قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج، **معالم النهضة الإصلاحية عند إباضية الجزائر**، ، جمعية التراث، ط.1، غرداية، الجزائر، 2011، ص 546.

4- ينظر: العرفان، "المرأة العربية في التاريخ" **وادي ميزاب**، العدد9، 1926/11/26م.

5- أبو اليقظان، "المرأة الجزائرية والحجاب"، **وادي ميزاب**، العدد62، 1927/12/23م.

في الجزائر[1]، مما دفع بأبي اليقظان إلى الرد عليه في مقالة "قنبلة الإلحاد في تونس" ورد فيها ما يلي: "إن من يقرأ أسطرا أو سطرين من الكتاب .... يجد عند التأمل .... تشكيكا في الدين والتشريع الإسلامي، ونقصا لما أبرمه الله في كتابه الكريم، كما يقول لنا "سي الحداد" الرسول المجدد للإسلام، الناسخ لكثير من آياته البيّنات، المعدل لكثير من مسائله وأحكامه العادلة كمسألة الميراث والطلاق، وتعدد الزوجات والحجاب وشهادة المرأة ومنزلتها مع الرجل..."[2]

دافع أبو اليقظان العالم الجليل عن حجاب المرأة المسلمة، ورفض السفور معتبرا أن الأمر الشرعي بالحجاب هو أمر لصيانة عفة المرأة وفضيلتها ولا يتعلق بالتقدم والتخلف والتحرر، وأكد هذا من خلال قوله: "إن مسألة السفور والحجاب ليست مسألة جمود وحركة رقي وانحطاط، علم وجهل، بل هي مسألة تدين وتجرد، عفاف وتهتك، عقل وطيش وجهلة هذه فتنة من فتن أوروبا خدعت بها أغرار المسلمين، لينصرفوا عن واجباتهم الدينية والوطنية الحقيقية."[3]

ورفض ما وصلت إليه حالة بعض النساء المسلمات اللواتي خلعن أثواب العروبة ولبسن أثواب وأزياء على الطريقة الأوروبية، وتساءل عن الأسباب التي دفعتهن إلى هذا التصرف المشين في حق أنفسهن ودينهن، معتبرا السفور معصية خطيرة فقال: "إن القلب ينقطع حزنا وكمدا، وإن الصدر ليتفجر بأسا وقنوطا، وإن الفؤاد ليذوب حسرة وأسفا على نساء اليوم، وما صرنا إليه من تدهور في الأخلاق وخروج عن دين الله جل جلاله ... فقد حارت عقولنا فيكن، وجدير بنا أن نحتار ... يا نساء الإسلام وبنات العرب الكرام، ما الذي أدى بكن إلى هذا التبرج؟[4] أن معركة الحجاب والسفور هي معركة بين الإسلام وخصومه من كل الاتجاهات، وهدم هذه الفضيلة هو هدم للأسرة المسلمة قاطبة.

وحملت مقالات أخرى كثيرة حس الرجل الديني في دفاعه عن الحجاب ورفضه للسفور خاصة مقالات: "تأبط خيرا ... همسة في أذن نقد النديم"، "ما هكذا الدفاع عن الحجاب"، "تأبط ... أردنا نصيحة فأراد فضيحة"، "المرأة الجزائرية والحجاب"[5]، والواقع أن الشيخ أبو اليقظان رأى أن النقاش لا يجوز أصلا في مسألة الحجاب لأنها مسألة مفروغ منها، وليس لأحد الحق في تغيير ما جاء به القرآن الكريم لأنه "أمر لا يقبل التعطيل أو التعديل" ولا يزيل الحجاب كون المرأة مثقفة أو مهذبة لأن قضايا التحليل والتحريم "لا تبنى على

1- عبد الرزاق قسوم، "إبراهيم أبو اليقظان: خطورة التحدي وصلابة الاستجابة"، **مجلة الموافقات**، المعهد الوطني العالي لأصول الدين، جامعة الجزائر، العدد 5، 1996، ص 312 .

2- أبو اليقظان، "دفع الالتباس"، **المغرب**، العدد.25، 1930/11/18م.

3- أبو اليقظان، "حكمة التشريع الإسلامي"، **وادي ميزاب**، العدد.72، 1928/03/02م.

4- شوقي إبراهيم، "تبرج النساء"، **وادي ميزاب**، العدد22، 1927/03/04م.

5- يراجع: عبد الرزاق قسوم، المقال السابق، ص- ص.303- 325 .

الشواذ، ولكن تبنى على العموم"[1].

وظهر موقف مصلح جزائري آخر في مسألة الحجاب والسفور، وهو موقف المصلح الشيخ سعيد الزاهري الذي كثيرا ما رد على دعاة التبرج والسفور من الغربيين والموالين لهم، وطالما أكد أن المرأة الجزائرية العفيفة ترى في الحجاب رمز العفاف والأنوثة[2]، وعلق بسخرية على دعوة إحدى التونسيات للتبرج والانسلاخ لأجل التقدم والتطور، بمقال بجريدة "البرق" عام 1927 بعنوان "التفرنج الآثم" نشره في ثلاثة أعداد (4-5-7) "... ونحن المسلمات محرومات من استنشاق الهواء الطلق، قواعد في بيوتهن..."[3]

وعلقت الشهاب بدورها على محاضرة ألقتها نساء تونسيات متبرجات شجعن على السفور، ومن بين ما كتبه الشيخ عبد الحميد بن باديس في "الشهاب" معلقا على كتاب محمد السعيد الزاهري المعنون بـ: "الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير" ما يلي[4]: "وقد خاض مسألة الحجاب والمرأة الجزائرية ومسألة الإسلام والتغريب والشبيبة المتعلمة فأبان من الحقائق وأقام من الحجج ما لا يلقاه أشد الخصوم إذا أنصف إلا بالإكبار والتسليم." هذا الكتاب الذي بين فيه الزاهري عدة قضايا حول الإسلام والحجاب ومن بينها قضية المرأة المستشرقة التي ألفت كتابا عن الحجاب (على الأرجح المقصودة هي المستشرقة الفرنسية ماري بوجيجا) باعتباره رمزا للقهر والذل والعبودية للمرأة المسلمة، وراحت تقرأه على النساء المسلمات في بيوتهن، لكن قوبلت بالرفض واستطاعت أن تقنعها إحدى النساء البسيطات بخطأ فكرها، وبعد أن انهزمت –حسب رواية الزاهري- راحت تتخلص من كتابها ومالت إلى الإسلام، وحتى أنها فكرت في تأليف كتاب عن الحجاب،[5] وأبدى الزاهري إعجابه بتلك المرأة الجزائرية المتمسكة بحجابها بقوله: "والذي يسرني جدا أن نساءنا مازلن يعتقدن أن الحجاب هو إمارة الشرف والاستقامة، وعنوان العفاف والتقوى وأنهن مازلن ينظرن إلى المرأة السافرة كخاطئة (مشبوهة) قد خلعت العذار، تستحق منهن كل ازدراء واحتقار..."[6]

لقد اتضح بما لا يدع مجالا للشك أن المصلحين الجزائريين من رجال جمعية العلماء المسلمين تصدوا للأفكار الغربية والدخيلة، التي أرادت أن تنتزع المرأة المسلمة من محيطها الاجتماعي والثقافي، وتبعدها عن مبادئ دينها بدعوى التقدم والتحرر، فالتحرر تحرر الفكر وليس الجسد، وأهم سبيل للحرية هو طريق العلم والمعرفة، لذا لم يعارض أغلب علماء الإصلاح هذا الطريق، بل دعوا إليه وشجعوا تعليم المرأة وعلى رأسهم

1- أبو اليقظان، "ما هكذا الدفاع عن الحجاب"، **وادي ميزاب**، العدد.119، 1929.

2- أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، المرجع السابق، ص 352 .

3- نقلا عن: زهير بن علي، المرجع السابق، ص 173 .

4- نقلا عن: المرجع نفسه.

5- أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، المرجع السابق، ص 352.

6- زهير بن علي، المرجع السابق، ص 193 .

الإمام عبد الحميد بن باديس، ورفيق دربه في الإصلاح الشيخ البشير الإبراهيمي، وقد أراد بن باديس أن تقتدي نساء الجزائر بنساء الخلف في أخلاقهن وعملهن، فكتب في الشهاب تحت عنوان "رجال السلف ونساؤه"[1]، وهي مجموعة من القصص والسير من رجال ونساء من جيل الصحابة، وأراد الإمام حقا أن يسترد للمرأة الجزائرية كرامتها الحقيقية ويخلصها من التقاليد البالية، ومن المشروع الاستعماري، ومن الجهل والمهانة التي كانت تعيشها، فكتب قصصا في الشهاب عن صحابيات شاركن الرجال في الحرب، (قصة الصحابية الجليلة "الربيع بنت معوذ" الأنصارية) وهي أبعد الأمور عن طبعهن، وفيهن القدوة الحسنة لإشراك المرأة الجزائرية فيما يقوم به الرجل من مهام، ليقمن بقسطهن مما يليق بهن في الحياة على ما يفرضه عليهن الإسلام، من التزام وعدم زينة وعدم اختلاط، ولن تكتمل حياة أمة إلا بحياة شطريها الذكر والأنثى[2].

ولم يمانع الإمام تعليم المرأة والبنات بل عندما أنشأ جمعية التربية والتعليم جعل من اهتمام مكتبها التعليمي تعليم البنات مجانا، وذلك لإعداد المرأة للقيام بدورها الرسالي، كما خصص دروسا للنساء في المسجد الأخضر وغيره من مساجد قسنطينة، وقد كن يحضرن بأعداد كثيرة[3]، وعليه فالمسألة تحرير العقل وليس البدن.

واهتم الإبراهيمي أيضا بتعليم المرأة واعتبره هو السبيل الأمثل لتحريرها وتحرير المجتمع من جل مظاهر التخلف، وأشار إلى أن تعليم المرأة يجب أن يكون محاطا بالعلوم الدينية، لأنها هي التي تحميها من المخاطر المحدقة بها، وليس التعليم الفرنسي هو التعليم المناسب لها، فهذا النوع من التعليم الذي أتيح أصلا لفئة قليلة من الجزائريات، قد يحمل معه مخاطر على شخصيتها وهويتها الدينية، لأنه بعيد عن اللغة العربية والأصالة الجزائرية، لقد كان الإبراهيمي يرى أن المرأة إذا أهمل تعليمها أنجبت أبناء لن تحسن تربيتهم، وعم الخطر البلاد والعباد، لأنها ستطبع أبناءها بشخصيتها، وكيف ستكون شخصية الإنسان ما لم تهذب بالتربية والتعليم؟[4]

إن رأي هاذين العالمين الجليلين في خروج المرأة للتعليم في تلك الفترة التي كانت الجزائر فيها غارقة في الاستعمار، والظلمات والجهل والتخلف وانحرافات الطرق الصوفية، لدليل على أنهما عرفا قيمة المرأة الحقيقية كما رسمها الإسلام، ولم ينقصا من شأنها تأثرا بالعادات والتقاليد الراكدة الموروثة المنسوبة

---

1 **الشهاب**، مج.10، ج.1، جانفي 1934، ص- ص 14- 16.

2- **الشهاب**، مج.10، ج.1، جانفي 1934، ص- ص، 14- 16 .

3- بن خليف مالك، **الفكر السياسي عند العلامة عبد الحميد بن باديس**، دار طليطلة، ط.1، الجزائر، 2010، ص- ص 334- 335 .

المرجع نفسه، ص- ص 365- 366 .

4 -البشير الإبراهيمي، المصدر السابق، ص.-ص263 وما بعدها.

للإسلام، أو تماشيا مع تيارات السفور والتحرر، وأن التحرر في مفهومها الخاص هو تحرر الفكر والعقل مع ستر الجسد، بل كلما تخلت المرأة عن حجابها وسترها إلا وخسرت دينها ودنياها قبل آخرتها.

خاتمة:

لقد رأى رجال الإصلاح في الجزائر وعلى رأسهم العلامة عبد الحميد بن باديس والشيخ البشير الإبراهيمي، أن صلاح المرأة الجزائرية في الحفاظ على حجابها وتعليمها تعليما يتناسب مع هويتها الإسلامية، وأن تحررها لا يعني سفورها وتمزيق حجابها، والتحرر المطلوب هو تحرر العقل بنزع حجاب الجهل عنه، وبهذه الأفكار واجهوا الفكر التغريبي قولا وعملا، معتبرين السفور دعوة باطلة من أعداء الدين ربطوه بالتقدم ظلما وبهتانا، ويمكن للمرأة الوصول إلى أعلى المراتب وهي محجبة ومستورة، فلا الحجاب يعيق العمل والتقدم، ولا السفور وحده يحقق النجاح والتقدم.

قائمة المصادر والمراجع:

أولا: المصادر باللغة العربية

1- الكتب

1- أمين قاسم، **تحرير المرأة** (ويليه تربية المرأة والحجاب لطلعت حرب)، دار الكتاب المصري-دار الكتاب اللبناني)، القاهرة-بيروت، (د.ت.)

2- أمين قاسم، **المرأة الجديدة**، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، 2012.

3- الإبراهيمي محمد البشير، **آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي**، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، ج.4، ، دار الغرب الإسلامي، ط.1، بيروت، 1997.

4- الطاهر الحداد، **امرأتنا في الشريعة والمجتمع**، تقديم محمد الحداد، دار الكتاب المصري-دار الكتاب اللبناني، القاهرة –بيروت، 2011.

5- شالر وليام، **مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1824**، تعريب وتعليق وتقديم اسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.

6- خوجة حمدان بن عثمان، **المرآة**، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 1982.

7- آل خليفة محمد العيد، **ديوان محمد العيد أل خليفة**، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2010.

2- الصحف

1- أبو اليقظان، "المرأة الجزائرية والحجاب"، **وادي ميزاب**، العدد62، 1927/12/23م.

2- أبو اليقظان، "دفع الالتباس"، **المغرب**، العدد.25، 1930/11/18م.

3- أبو اليقظان، "حكمة التشريع الإسلامي"، **وادي ميزاب**، العدد.72، 1928/03/02م.

4- أبو اليقظان، "ما هكذا الدفاع عن الحجاب"، **وادي ميزاب**، العدد.119، 1929.

5- **مجلة الشهاب**، مج.6، جويلية 1930.
6- مجلة الشهاب، مج.6، أوت 1930.
7- مجلة الشهاب، مج.6، سبتمبر 1930.
8- **مجلة الشهاب**، مج.6، جوان 1930.
9- **مجلة الشهاب** مج.5، ج.10، نوفمبر 1929.
10- **مجلة الشهاب**، مج.6،ج.11، ديسمبر 1930.
11- **مجلة الشهاب**، مج.10، ج.1، جانفي 1934.
12- **مجلة الشهاب**، مج.10، ج.1، جانفي 1934.
13- **مجلة الشهاب**، مج.8، ج.8، أوت 1932 .
14- العرفان، "المرأة العربية في التاريخ" **وادي ميزاب**، العدد9، 1926/11/26م.
15- شوقي إبراهيم، "تبرج النساء"، **وادي ميزاب**، العدد22، 1927/03/04م.

ثانيا: المصادر باللغة الفرنسية

[1] L. De Tassy, **Histoire du Royaume d'Alger**, Henri du Sauzet Amsterdam, P.77, Amsterdam 2Rozet et Carette, **l'Algérie, Histoire et description de tous les peuples de leur religions, mœurs, coutumes**, ... Firmin didot Frères, Paris, 1850

ثالثا: المراجع

1-الكتب

1- بالحاج قاسم بن أحمد الشيخ، **معالم النهضة الإصلاحية عند إباضية الجزائر**، ، جمعية التراث، ط.1، غرداية، الجزائر، 2011.
2- مالك بن خليف، **الفكر السياسي عند العلامة عبد الحميد بن باديس**، ، دار طليطلة، ط.1، الجزائر، 2010.
3- سعد الله فوزي، **يهود الجزائر هؤلاء المجهولون**، ج.1، ، دار قرطبة، ط.2، الجزائر، 2005.
4- سعد الله أبو القاسم، **محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث بداية الاحتلال**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط.3، الجزائر، 1976.
5- سعد الله أبو القاسم، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج.6، عالم المعرفة، الجزائر، 2011.
6- القصاب أحمد، **تاريخ تونس المعاصرة (1881-1956)**، ترجمة: حمادي الساحلي، الشركة التونسية للتوزيع، ط.1، تونس، 1986.
7- الغزالي محمد، **الحق المر**، دار الشهاب، مكتبة التراث، الجزائر، 1987.

2-الدوريات

1- جاب الله طيب، "دور الطرق الصوفية والزوايا في المجتمع الجزائري"، **معارف**، ، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، بويرة (الجزائر)، العدد 14، أكتوبر 2013.

2- زقور عفاف، "صورة المرأة المسلمة الجزائرية في خطاب الشيخ عبد الحميد بن باديس بين التجديد والتقليد"، **عصور**، جامعة وهران 1 (الجزائر)، المجلد9، العدد2، 30 ديسمبر 2010 .

3- معاشي جميلة، "نماذج عن مكانة المرأة في الجزائر خلال العهد العثماني"، **التراث**، مجلة تاريخية أثرية تصدرها دوريا جمعية التاريخ والتراث الأثري لمنطقة الأوراس، باتنة (الجزائر)، العدد 8، نوفمبر 1995.

4- عجناك يمينة، "المرأة والإصلاح الديني في كتابات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين"، **حوليات جامعة الجزائر**، جامعة الجزائر 1(الجزائر)، الجزء الأول، العدد20، ديسمبر 2001.

5- قسوم عبد الرزاق، "إبراهيم أبو اليقظان: خطورة التحدي وصلابة الاستجابة"، **مجلة الموافقات**، المعهد الوطني العالي لأصول الدين، جامعة الجزائر، العدد 5، 1996.

3-الدراسات غير المنشورة

1- بودريعة ياسين، **أوقاف الأضرحة والزوايا بمدينة الجزائر وضواحيها خلال العهد العثماني من خلال المحاكم الشرعية وسجلات بيت المال والبايلك**، ماجستير في التاريخ الحديث، قسم التاريخ، جامعة بن يوسف بن خدة، الجزائر، 2006-2007.

2- بن علي زهير، **قضايا المرأة ضمن اهتمامات الحركة الإصلاحية الجزائرية 1925-1954**، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة الحاج لخضر باتنة (الجزائر)، 2014-2015.

3- حباطي عايدة، **التيارات الفكرية في المشرق وصداها لدى النخبة العربية في الجزائر1900-1939**، أطروحة دكتوراه في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة (الجزائر) ، 2018-2019.